

الأبعاد الروحية والسلوكية لعلاقة الشيخ بالمريد في الفكر الصوفي

د. قاسم جاجاتي

مدرس وباحث في قسم اللغة العربية،

كلية الآداب والعلوم الإنسانية،

جامعة شيخ أنطا جوب بذاكار- السنغال



يتحدّد مجالُ هذا البحث في نطاق دراسة الأبعاد الروحية والسلوكية المتعلقة بالعلاقة التي تربط الشيخ بالمريد، ويُخَوَّل هذا المنظورُ حقَّ تحليل أصول هذه العلاقة، ومسؤوليات كل واحد منهما تجاه الآخر، والتحديات التي يواجهها المريد خلال تجربته الروحية. والزاوية التي طُرِحَ في إطارها هذا الموضوعُ تسمح أيضاً بالاهتمام بالمساعدة التي يحتاج إليها المريد من شيخه في مجال التوجيهات والنصائح والحماية، من أجل بلوغ أعلى درجات الإتقان في ميدان معرفة الله واليقين في توحيده.

Résumé

Ce présent travail de recherche est circonscrit autour de l'étude des dimensions spirituelles et comportementales touchant les relations qui lient le maître soufi à son disciple. La perspective adoptée légitime l'analyse des fondements de leurs relations, les responsabilités de chacun vis-à-vis de l'autre et les défis que le disciple doit relever au cours de son expérience spirituelle. L'angle suivant lequel la question est envisagée permet également de se pencher sur le concours dont le disciple a besoin, auprès de son maître, en matière d'orientation, de conseil et de protection, afin d'atteindre le niveau de la perfection le plus élevé dans le domaine de gnose et de la certitude sur l'unicité divine.



المقدمة

يُولي علماء التصوف أهميةً خاصّةً لموضوع العلاقة بين الشيخ والمريد، ويبدو أنّها علاقة خاصة يتعهد بموجبها المريد بالانقياد التام لأوامر الشيخ والابتعاد عن جميع ما ينهاه. ويبدو أيضاً أن الشيخ يقوم بتربيته والإشراف على مجاهدته ورياضته الروحية مع توجيهه وتذليل العقبات والصعوبات التي يلاقيها أثناء سعيه وراء تحقيق أهدافه الروحية.

ونتصور أن هذه العلاقة معقدة ومتعددة الجوانب، وهذا ما يدفعنا إلى طرح تساؤلات تتمحور حول ظروف نشأتها وتكوّنها، وحول حقيقة الأهداف المنشودة منها والوسائل المستخدمة لتحقيقها. وسنستعمل المنهج التحليلي لفحص عناصر إشكالية الموضوع المطروحة وضبط تشعباته، من أجل توضيح أبعادها وأشكالها الروحية والسلوكية.

وتدور خطة البحث حول النقاط التالية: عوامل نشأة وتكوّن علاقة الشيخ بالمريد؛ جدلية احتياج المريد إلى شيخ؛ وظيفة الشيخ ورتبته ومهامه؛ السالكون المؤهلون للمشايخ وغيرهم؛ شروط تعلق المريد بشيخه وخطوات تربيته؛ منهج تربية الشيخ وتأديبه لمريده.

1 عوامل علاقة الشيخ بالمريد:

أرجع الإمام الغزالي عوامل نشأة وتكوّن علاقة الشيخ بالمريد إلى ظروف غموض سُبُل الدين وكثرة سبل الشيطان الظاهرة. ولهذا السبب يحتاج المريد، في نظره، إلى شيخ وأستاذ يقتدي به ليهديه إلى سواء السبيل، ويحول بينه وبين الدخول في طُرُق الشيطان التي تبعده عن جادة الصواب. وحذّر من المخاطر التي يتعرض لها المريد الذي ليس له شيخ أو إمام يقتدي به بهذه العبارة: " فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طَرِّقه لا محالة". وشبه الإمام الغزالي المأزق الذي يتورط فيه مريدٌ ليس

له شيخ بخطر الهلاك الذي يحرق بشخص يسلك البوادي المهلكة دون حراسة خفي. (1)

وعلى منوال الإمام الغزالي نسج الإمام عبد الكريم القشيري الذي أقرّ بوجوب تأدّب المريد بشيخ؛ لأن من ليس له أستاذ لا يفلح أبداً، ثم ذكر أن أبا يزيد البسطامي قال: "إن من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان"، ثم روى في هذا الصدد ما نقله عن صوفي آخر اسمه الأستاذ أبو علي الدقاق، وهو قوله: "الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تُورق، ولكن لا تثمر؛ كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً نفساً فهو عابد هواه، لا يجد نفاذا". (2)

وصف الإمام الشعراني، تمهيدا لتحديد ظروف نشأة العلاقة بين المريد والشيخ، التصوف بأنه "الصراط المستقيم الذي غايته معرفة الحق جل وعلا، ومعرفة الآداب المتعلقة بحضرته. ومعلوم أن معرفة الحق أشرف العلوم، كما أن معرفتها أشرف وأعز في الوجود، فلذلك كان الطريق إلى معرفته أشرف الطرق وأفضلها، وكان الشيخ الدال عليه سيد الأدلاء وأكملهم وأعظمهم، والسالكون إليه أسعد السالكين وأنجاهم، فينبغي لكل من نصح نفسه أن لا يسلك من الطرق سوى هذا الطريق؛ لارتباطه بالسعادة الأبدية، فإنه حاو لعلم الشريعة والحقيقة، والعارف به هو المستحق بمقام الشياخة والوراثة النبوية الكاملة، ومن حصل فيه قيل له الشيخ والوارث والأستاذ إن كان تابعا؛ والنبي إن كان في زمن النبوة". (3)

وأوضح الإمام الشعراني، في السياق نفسه، بأن الله تعالى قد جعل "جبريل عليه السلام في صورة مقام الأستاذ للأنبياء تعليماً لنا وإرشاداً، لاتخاذنا الوسطة بيننا وبين الله تعالى. ولا يفتن بما يليق به الله تعالى إلى قلوبنا من الوجه الخاص الذي بيننا وبين ربنا، فكان الأنبياء في مقام

المتعلمين من أشيائهم، وأشيائنا في مقام المتعلمين من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الشيخ الحقيقي لنا ولأشيائنا، ونحن جميعاً تلاميذ له". وأكد الإمام الشعراني بأن هذا الطريق (طريق التصوف) لما كان في مقام العز والشرف حَقَّتْ به الآفات من جميع الجهات، فلا يسلكه إلا شجاع مقدام على يد شيخ علام، وحينئذ تقع الفائدة". (4)

2 جدلية احتياج المريد إلى شيخ:

تناول ابن خلدون موضوع مناظرة جرت بين من يعتقدون أن لا حاجة للمريد إلى شيخ يشرف عليه ويرشده، وبين من يؤيدون العكس، وأخبر بأن حجة من يعارضون تعلُّق مريد بشيخ تتلخَّصُ في أن "أصل السلوك إنما هو بالكتاب والسنة وما نشأ عنهما"، وأن تلك المعلومات والمعارف مسطورة، ونَقَلَتْهَا منتصبون لتعليمها، وشيوخ هذه الطريقة من جملتهم، ويتساءلون قائلين: "فما الذي يمنع من السلوك دونهم؟". أما من يؤيدون بأن المريد يحتاج إلى شيخ فيردون عليهم بقولهم: لو كان مجرد نقل المعلومات كافياً في حصول هذا المقصود أو غيره، فإن ذلك يؤدي إلى وضع الجميع على قدم المساوات في جميع العلوم والصنائع: "مَنْ حَفِظَ وَصَفَّهَا ولم يُعَانِهَا مع من عانها بالفعل، ودخل فيها حالاً واتصافاً، لكن هذا لا يكون فيما توَهَّمْتُمْ أَنَّهُ يحصل بمجرد النقل". (5)

ثم أبدى ابن خلدون موقفه في هذه القضية مؤيِّداً بأن نوع المجاهدة التي يُشترط أن يقوم بها المريد بإشراف من الشيخ المري هي مجاهدة الكشف؛ لكونها غريبة وعظيمة الخطر، ولكون أحوالها وثمراتها عن كسب السالك وقدرته واختياره. وأكد ابن خلدون بأن من ادعى أن شيئاً من مجاهدة الكشف مسطورٌ ومكتوبٌ، فإن ذلك لم يحدث إلا على سبيل الإجمال والخفاء؛ لأنه لم يوضع لمجاهدة الكشف مصلحات خاصة بها تسهِّل فهم معانيها، فكل ما يدعيه أهلها من الأحوال والواردات فهي

أمور ذوقية خاصة بهم لا يفهم حقيقتها ويتأكد من صحتها وصدقها إلا من عاش تجربة مُوفقة في هذا المجال الذي يتضمن الكثير من الغرر الذي يشكّل خطراً بالنسبة لسالك يعتمد على النصوص والأخبار، دون أن يُشرف عليه الشيخ المربي. (6)

ومن ناحية أخرى أنكر ابن خلدون ما قاله النافون "بعدم وجود فرق بين شيوخ الطريقة وعلماء العقيدة والشرعة وردّ عليهم بقوله "إن شيوخ الطريقة شيوخ تربية وارتياض ودلالة على أحوال معاناة خارجة عن الاختيار، ليست من قبيل المحسوسات، ولا العلوم المتعارفة، وشيوخ الفتيّا حملة الشرعة، شيوخ نقل وإبانة عن كيفية عمل داخل تحت القدرة. وأكد أن الفرق بين المقامين فرق كبير، والأمر الوحيد الذي يجمع بين الفئتين هو أنهم جميعاً على حق ويجب تعظيمهم واتباع هديهم. (7)

3 وظيفة الشيخ ورتبته ومهامه:

وظيفة الشيخ، في نظر أبي النجيب السهروردي، هي الدعوة إلى الله؛ لأن الشيخ يُحبب الله إلى عباده حقيقة، ويُحبب عباده إلى الله ويعتبر الإمام السهرودي "رتبة الشيخ من أعلى الرتب في طريق الصوفية" وهي بمثابة نيابة النبوة في الدعوة إلى الله. ثم أوضح الإمام السهروردي طريقة أداء الشيخ بعض مهامه تجاه المريد بقوله: "فأما وجه كونه الشيخ يُحبب الله إلى عباده، فالأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله تعالى، قال الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31".

وشرح الإمام السهرودي الطريق الذي يُحبب الشيخ عبادة الله إلى ربه مبيّناً أنه يسلك بهم طريق التزكية، "وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب؛ وانعكست فيهم أنوار العظمة الإلهية؛ ولاح فيه جمال التوحيد؛

وانجذبت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي؛ فأحبَّ العبدُ ربَّه لا محالة؛ وذلك ميراثُ التزكية، قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} الشمس 9، وفسر الإمام السهرودي هذا الفلاح بالظفر بمعرفة الله تعالى، مُبَيِّنًا أن " مرآة القلب إذا انجلت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها؛ ولاحت الآخرة ونفائسها بكنهها وغايتها، فتتكشف للبصيرة حقيقة الدارين وحاصل المنزلتين؛ فيُحِبُّ العبدُ الباقيَ ويُرهِدُ في الفاني، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية: فالشيخ، حسب تعبيره، من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الظالمين " (8).

وأوضح الإمام السهرودي من ناحية أخرى بأن المشايخ لما اهتموا أهَّلوا للاقتداء بهم وجُعِلوا أئمة المتقين، ثم أعطى فكرة عن المراحل التي يمر بها السالك قبل أن يبلغ درجة المشيخة، فهو مأمور بسياسة النفس مبتل بصفاها، لا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نفسه وبطمانيئتها ينتزع عنها البرودة واليبوسة التي استصحبها من أصل خلقتها، وبها تستعصي على الطاعة والانقياد للعبودية، فإذا زالت اليبوسة عنها ولانت بحرارة الروح الواصلة إليها - وهذا اللين هو الذي ذكره الله تعالى في قوله: {ثُمَّ تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} الزمر 23- (فإن روحه) تُجِيبُ إلى العبادة وتَلِينَ للطاعة عند ذلك؛ وقلب العبد متوسط بين الروح والنفس، ذو وجهين: أحد وجهيه إلى النفس، والوجه الآخر إلى الروح، يستمد من الروح بوجهه الذي يليه، ويمدُّ النفس بوجهها الذي يليها حتى تطمئن النفس؛ فإذا اطمأنت نفس السالك وفرغ من سياستها انتهى سلوكه وتمكَّن من سياسة النفس، وانقادت نفسه وفاءت إلى أمر الله، ثم القلب يَشْرُبُ إلى السياسة لما فيه من التوجُّه إلى النفس، فتقوم نفوس المريدين والطالبيين والصادقين عنده مقام

نفسه، لوجود الجنسية في عين النفسية من وجه، ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد عن وجه التآلف الإلهي، قال الله تعالى: { لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِئِنَّ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } الأنفال 63، فيسوس نفوس المريدين كما كان يسوس نفسه من قبل. (9).

4 السالكون المؤهلون للمشيخة وغيرهم:

قسم الإمام السهروردي أنواع السالكين إلى:

- 1- سالك مجرد؛ وهو الذي لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه، فيقف عند حظه من رحمة الله في مقام المعاملة والرياضة، ولا يرتقي إلى حال يُرَوِّح بها عن وهج المكابدة.
- 2- المجذوب المجرد من غير سلوك، يبادئه الحق بئيات اليقين، ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب، ولا يؤخذ في طريق المعاملة وهذا أيضاً لا يصلح للمشيخة، ويقف عند حظه من الله مروحاً بحاله، غير مأخوذ في طريق أعماله ما عدا الفريضة.
- 3- سالك تدورك بالجدبة؛ وهو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط، ثم أُخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال، فوجد العسل بعد العلقم، وتَرَوَّحَ بنسمات الفضل، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة، وأُونِسَ بنفحات القرب، وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه وفاض وعاءه، وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب، وتوالت عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسدوداً وباطنه مشاهداً، لأنه أخذ في طريق المحبين، ومُنِحَ حالٌ من أحوال المقربين، بعد ما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم، ويظهر بطريقه بركة، ولكن قد يكون محبوساً في حاله، محكما حاله فيه، لا يُطْلَق من وثاق الحال، ولا يبلغ

كمال النوال، يقف عند حظه وهو حظ وافر؛ والذين أوتوا العلم درجات.

4- المجذوب المتدارك بالسلوك، وهو المقام الأكمل في المشيخة، ييادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين، ويرفع عن قلبه الحجب، ويستنير بأنوار المشاهدة، وينشرح وينفسح قلبه، ويتجافى عن دار الغرور، وينيب إلى دار الخلود، ويرتقي من بحر الحال، ويتلخص من الأغلال والأعلال، ويقول معلنا: "لا أعبد ربا لم أره، ثم يفيض من باطنه على ظاهره، وتجري عليه صور المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء، بل بلذذة وهناء، ويصير قلبه بصفة قلبه؛ لامتلاء قلبه بحب ربه، ويلين جلده كما لان قلبه، وعلامة لين جلده إجابته لقلب العمل لإجابته قلبه، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة، ويرزقه محبة خاصة المحبوبين المرادين: ينقطع فيواصل، ويعرض عنه فيراسل، يذهب عنه جهود النفس؛ ويصطلي بحرارة الروح، وتنكمش عن قلبه عروق النفس. قال تعالى: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ} الزمر 23، أخبرت الآية أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين؛ ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد.

وبين الإمام السهروردي أن المحبوب المراد المتأهل للمشيخة سليم القلب منشرح الصدر، لين الجلد، ولهذا السبب صار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، ولانت نفسه بعد أن كانت أمارة بالسوء مستعصية، ويستمر في معراجيه إلى أن يصح له أن يقول: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطراً على الحال، لا الحال مسيطراً عليه، ويصير حراً من كل وجه. وهذا الشيخ في طريق المحبوبين حرٌّ من رق القلب كما هو حر من رق النفس؛ وذلك أن النفس حجاب ظلمياني أرضي أُعْتِقَ منه الأول، والقلب حجاب نوراني

سماوي أُعْتِقَ منه الآخر، فصار لربه لا لقلبه، ولموقته لا لوقته، فَعَبَدَ اللهَ حقاً وآمَنَ به صدقاً. (10)

5 شروط تعلّق المريد بشيخه وخطوات تربيته:

وبين الإمام الشعرائي أن من أهم شروط تعلّق المريد بشيخ أن يتأكد، قبل الدخول في صحبته، بأنه "عارفٌ بالكتاب والسنة، عارفٌ بميزان الخواطر النفسية والشيطانية والملكية والرحمانية، عارفٌ بالأصل الذي تنبعث منه هذه الخواطر من حضرات الأسماء الإلهية، عارفٌ بالعلل والأمراض المعوّقة عن صحة الوصول إلى عين الحقيقة عارفٌ بأمزجة المريدين، ليعطي كلّ إنسان من العمل والطعام وغيرهما مما يقدر عليه، عارفٌ بالعلائق الخارجة عن أعمال الطريق". واختتم الإمام الشعرائي بقوله: "فإذا سمع مريدٌ بهذه الصفات، وعرضَها على أحد من مشايخ عصره فوجدها مجموعة فيه، وجب عليه الانقياد له، والعمل بكل ما يأمره به بانشرح صدر، ولو شق ذلك عليه". (11)

وحسب رأي الإمام الغزالي، يجب على المريد أن يتمسك بشيخه تمسك الأعمى بالشخص الذي يقوده على شاطئ النهر، وأن لا يخالفه في شيء. وبالمقابل من واجب الشيخ أن يحميه ويدبره على آداب الخلوة والصمت والجوع والسهر التي تُؤمّنُه وتدفع عنه العوارض القاطعة للطريق. ويتولى الشيخ الإشراف، بشكل تدريجي، على مراحل سلوكه وقطع عقبات حب الدنيا، والمال والجاه، والالتفات إلى الخلق والتشوف إلى المعاصي. (12)

وحدد الإمام الشعرائي واجبات كل من الشيخ والمريد تجاه الآخر بقوله: "فعلى الشيخ أن يوفي حق تربية المريد، وعلى المريد أن يوفي حق طريقته بالسمع والطاعة، وليس مقام الشيوخة هو الغاية، بل الشيخ هو نفسه الطالب للمزيد من ربه على الدوام". (13)

في الباب الذي كرسه الإمام القشيري لهذا الموضوع أكد أن الصدق هو الأساس الذي يبني عليه المريد عمله، ويعتمد الصدق على اعتقاد صحيح بينه وبين الله تعالى، "صاف عن الظنون والشبه، خال من الضلالة والبدع، صادر عن البراهين والحجج". وبَيَّن بأن المريد يقوم، بعد تصحيح اعتقاده، بالانتساب إلى شيخ من شيوخ التصوف المتبحرين بعلوم التوحيد وغيرها. والشيء الذي يبرر انتساب المريد إلى شيخ هو، في نظر الإمام القشيري، كون مشايخ التصوف أصح الناس أصولاً، وعلمائهم أعلم الناس، ولهذا السبب فإن المريد الذي يتعلق بهم، ويتلقى تربيتهم سينال في نهاية المطاف ما كان يهدف إليه من مكاشفات ومكاسب روحية جمّة. (14)

أما مراحل سلوك المريد، التي يجب أن يسبقها تعلُّم علوم الشريعة، فيوضح الإمام القشيري خطواتها التي تبدأ بالتوبة إلى الله من كل زلة، ثم الابتعاد تماماً عن جميع الزلات الظاهرة أو الخفية، الصغيرة منها أو الكبيرة، ثم الخروج عن الماديات والجاه، ثم عليه أن يجتهد في "أن لا يكون في قلبه اعتراض على شيخه، فإذا خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة، أو على بساط الأرض أحد دونه لم يصح له في الإرادة قَدَمٌ؛ لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه، لا ليُحصِّل لنفسه قدراً".

وأوصى الإمام القشيري المريد بحفظ سره إلا عن شيخه الذي يجب أن ييوح إليه بجميع أسرارهِ وأن لا يكتمه شيئاً؛ لأنه يرتكب خيانة في حقه إذا كتم عنه سرا من أسرارهِ. ودعا الإمام القشيري المريد إلى الاستسلام لما يحكم به عليه شيخه عقوبة له على جنايته ومخالفته، إما بسفر يكلفه، أو بأمر ما يراه.

ومن ناحية أخرى، يرى الإمام القشيري أن لا يصح للشيخ التجاوز عن زلات مريده، ولا يصح له أيضاً أن يبدأ في تلقينه الأذكار إلا بعد

تأكدته من صحة عزم المريد ورضائه، بما يستقبله من فنون تصاريف القضاء. وإذا جربه شيخه وتأكد من صدق عزمه وإرادته، فيلقنه حينئذ ذكرا من الأذكار التي يراها مناسبة لحاله، "فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه، ثم يأمره أن يستوي قلبه مع لسانه، فيقول له: أثبت على إدامة هذا الذكر كأنك مع ربك أبدا بقلبك، ولا يجري على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك، ثم يأمره أن يكون أبدا في الظاهر على الطهارة، وأن لا يكون نومه إلا غلبة، وأن يقلل من غذائه بالتدريج شيئا شيئا بعد شيء حتى يقوي على ذلك، ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا محالة في نفي الخواطر الدنية والهواجس الشاغلة للقلب". (15)

خصّص الشيخ عبد القادر الجيلاني، المرجع الروحي الأول للطريقة القادرية، في كتابه الغنية، فصلا شرح فيه معاني الإرادة والمريد والمراد؛ وعرف فيه الإرادة بأنها "ترك ما جرت عليه العادة"، وأوضح بأن الإرادة تتحقق عن طريق "تهوؤ القلب في طلب الحق سبحانه وترك ما سواه؛ فإذا ترك العبد العادة التي هي حظوظ الدنيا والأخرى فتجدت حينئذ إرادته". وبين الشيخ عبد القادر أن الإرادة مقدّمة على كل أمر، ثم يعقبها القصد، ثم الفعل، فهي، أي الإرادة، بدء طريق كل سالك، واسم أول منزلة كل قاصد، قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} {الأنعام: 52، فنهى نبيه صلى الله عليه وسلم عن طردهم وإبعادهم، وقال تعالى في آية أخرى: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} {الكهف: 28، فأمره بالصبر معهم وملازمتهم وتصبر النفس في صحبتهم، ووصفهم بأنهم يريدون وجهه، ثم قال: {وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

{الكهف28، فإن بذلك أن حقيقة الإرادة إرادة وجه الله فحسب، ذلك زينة الحياة الدنيا والأخرى". (16)

وبعد تعريفه مفهوم الإرادة انتقل الشيخ عبد القادر إلى معنى المريد الذي عرّفه بالكلمات التالية: "المريد من كانت هذه الجملة (أي الجملة التي عرّف بها الإرادة) واتصف بهذه الصفة، فهو أبدا مقبل على الله عز وجل وطاعته، مول عن غيره وإجابته، يسمع من ربه عز وجل فيعمل بما في الكتاب والسنة، ويصمّ عما سوى ذلك". أما المراد فهو، في نظر الشيخ عبد القادر، "أن يصبر عن معاصي الله تعالى ويرضى بقضاء الله ويختار أمر الله، ويستحي من نظر الله، ويذل مجهوده في محاب الله تعالى، ويتعرض أبدا لكل سبب يوصله إلى الله عز وجل، ويقنع بالحمول والاختفاء، فلا يختار حمد عباد الله ويتحجب إلى ربه بكثرة النوافل، مخلصا لله حتى يصل إلى الله عز وجل، ويحصل في زمرة أحباب الله تعالى ومريده، فحينئذ يُسمّى مرادا. ولكي يحصل المريد على الإرادة والمراد فلا بد من أن ينخرط في سلك الطريقة الصوفية، وأن يكون صحيح الاعتقاد وأن يتقيد بالكتاب والسنة وعقيدة السلف الصالح، أمرا ونهيا أصلا وفرعا، ويكون صادقا ومجتهدا في ذلك حتى يجد الهداية والإرشاد والدليل، وقائدا يقوده، ثم مؤنسا يؤنسه، ومستراحا يستريح إليه في حالة إعيائه ونصبه وظلمته، عند ثوران شهوته ولذاته وهناة نفسه وهوائها المضلل، وطبعه المجهول على التثبط والتوقف عن السير في الطريق". (17)

وأيد الشيخ عبد القادر بأن المريد الذي تقيّد في البداية بهذه الشروط سيبلغ مرامه، واستشهد بقوله عز وجل: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} {العنكبوت69}، كما ذكر في هذا الصدد قول الحكيم: "من طلب الأمر وجدّ وجد". ورأى الإمام عبد القادر أن بالاعتقاد يحصل للمريد علم الحقيقة، فبالاجتهاد يتفق له

سلوك. ودعا الشيخ عبد القادر المريد الذي وجد شيخا مرشدا إلى ترك مخالفته في الظاهر، وترك الاعتراض عليه في الباطن، فصاحب العصيان بظاهره تارك لأدبه، وصاحب الاعتراض بسرّه متعرض لعطبه، بل يجب أن يكون المريد خصما على نفسه لشيخه أبدا، يكف نفسه ويزجرها عن مخالفته ظاهرا وباطنا، ويكثر قراءة قوله عز وجل: { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } الحشر 10. (18)

ورأى الشيخ عبد القادر كذلك أن من الضروري أن يلازم المريد شيخه، وأن لا ينقطع عنه "حتى يستغني عنه بالوصول إلى ربه عز وجل، فيتولى تبارك وتعالى تربيته وتهذيبه، ويوقفه على معاني أشياء خفيت على الشيخ. وأوصي كذلك كل مريد يرغب في التأدب بشيخ أن يكون تعلقه به لله عز وجل، وأن يحفظ سره في خدمته، وأن يتبعد كل الابتعاد عن مخالفته؛ لأن مخالفة الشيخ سم قاتل فيه مضرة عامة، فلا يخالفه بتصريح ولا بتأويل، وأن يجتهد في إخبار شيخه بجميع أحواله وأسراره ولا يكتمه شيئا، ولا يُطْلَعُ أحدا على ما يأمره شيخه، ولا ينبغي له أن يطلب الرخص أو العودة إلى شيء تركه الله تعالى، فإن ذلك من الكبائر وفسخ الإرادة عند أهل الطريقة، وعليه أن يتقيد بأوامر شيخه ويتبعد عما ينهاه عنه، وإذا وقع منه تقصير في القيام بما أشار إليه شيخه، فالواجب عليه تعريف ذلك لشيخه، ليرى فيه رأيه ويدعو له بالتوفيق والتيسير والفلاح. (19)

6 منهج تربية الشيخ وتأديبه لمريده:

بادئ ذي بدء من واجب الشيخ، حسب توضيح الإمام عبد القادر الجيلاني، أن يقبل المريد لله عز وجل لا لنفسه؛ فيعاشره بحكم النصيحة، ويلاحظه بعين الشفقة، ويلابسه بالرفق عند عجزه عن احتمال الرياضة؛

فيربيه تربية الوالدة لولدها، والوالد الشفيق الحكيم اللبيب لولده وغلامه، فيأخذه بالأسهل ولا يُحمّله ما لا طاقة له به، ثم يعامله بعد ذلك بالأشدّ فيأمره أولاً بترك متابعة الطبع في جميع أموره، واتباع رخص الشرع حتى يخرج بذلك عن قيد الطبع وحُكمه، ويحصل في قيد الشرع ورقه، ثم ينقله من الرُخص إلى العزيمة شيئاً بعض الشيء، فيمحو خصلة من الرخص ويثبت مكانه خصلة من العزيمة، فإن وجد الشيخ، في ابتداء أمر مريده، صدق المجاهدة والعزيمة وتفرّس فيه ذلك بنور الله عز وجل ومكاشفته، وعلم ذلك من قبل الله عز وجل، على ما قد مضت سنة الله في عباده المؤمنين من الأولياء والأحباب الأمناء والعلماء به، فحيث لا يسامحه في شيء من ذلك، بل يأخذه بالأشد من الرياضات التي يعلم أنه لا تتقاصر قوة إرادته عنها، إذا ثبت عنده أنه مخلوق لذلك وجدير به.

وهذا ما أتى به، تقريباً، الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين الذي أوضح فيه بأن المريد في حاجة إلى شيخ وأستاذ، له كفاءة وخبرة، يقتدي به ليهديه إلى سواء السبيل ويرشده إلى الصواب، فينبغي على هذا الشيخ أن يُطَبَّبَ نفوس المريدين ويعالج قلوب المسترشدين، وأن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص، ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم. وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكتهم وأماتت قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد وفي حاله وسنه ومزاجه وما تحمله بنيتّه من الرياضة ويبيّن على ذلك رياضته. فإن كان مريداً مبتدئاً جاهلاً بحدود الشرع فيعلمه أولاً الطهارة والصلاة وظواهر العبادات.

خاتمة:

وفي الختام نجد أن الأبعاد الروحية والسلوكية لعلاقة الشيخ بالمريد متعددة ومختلفة الجوانب، وأن ظروف نشأتها مرتبطة بالتحديات التي يواجهها المريد في أداء واجباته الدينية وأنشطته الروحية؛ ومن أبرز تلك التحديات، التي تحدت عنها علماء التصوف، وقوف الشيطان له بالمرصاد، وسعيه الدؤوب وراء إيقاعه في شركه، ومنعه من بلوغ مرامه. ولذلك يحتاج المريد إلى شيخ يقتدي به ويهديه إلى سواء السبيل، ويحميه عن وساوس الشيطان وإغوائه. ويشترط أن يكون ذلك الشيخ عارفا بالكتاب والسنة، عارفا بميزان الخواطر النفسية والشيطانية والملكية والرحمانية، عارفا بالعلل والأمراض المعوقة عن الوصول الصحيح إلى عين الحقيقة. ويجب على الشيخ الذي تتوفر فيه تلك المواصفات، التي يتميز بها شيوخ التصوف الواصلون وحدهم، أن يقبل المريد لله وحده، ويقوم بتربيته باللين والرفق، مع مراعات قدراته واستعداداته الشخصية في جميع مراحل رياضاته ومجاهداته الروحية، حتى يصل إلى صدق المجاهدة والعزيمة. ويشكل صدق المجاهدة والعزيمة، في نظر علماء التصوف، مرحلة تحول حاسمة في التجربة الروحية للمريد الذي يتلقى بفضل المكشفة المنبثقة من نور الله وتدلى على قبوله ورضاه اللذين لا ينالهما إلا من قطع شوطا كبيرا في ميدان معرفة ربه وتوحيده.

الهوامش:

- (1) الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، المجلد الثالث، دار المعرفة، بيروت 1982، ص ص 75-76.
- (2) القشيري عبد الكريم، الرسالة القشيرية، تحقيق عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف، ج2، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1974، ص ص 734-735.
- (3) الشعراي عبد الوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، تحقيق حسن محمد الشرقاوي، دار المعارف، الاسكندرية، 1991، ص ص 49-53.

(⁴) الشعراني عبد الوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، المصدر السابق، الصفحات نفسها.

(⁵) ابن خلدون عبد الرحمن، شفاء السائل وتحذيب المسائل، تحقيق محمد مطيع الحافظ، دار الفكر، دمشق، 1996، ص ص 72-73.

(⁶) ابن خلدون عبد الرحمن، شفاء السائل وتحذيب المسائل، ص ص 132-133.

(⁷) ابن خلدون عبد الرحمن، شفاء السائل وتحذيب المسائل، المصدر السابق، ص 133.

(⁸) السهروردي أبو النجيب، عوارف المعارف، ملحق إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 1982، ص ص 73-74.

(⁹) السهروردي أبو النجيب، عوارف المعارف، المصدر السابق الصفحات نفسها.

(10) السهروردي أبو النجيب، عوارف المعارف، المصدر السابق، ص ص 74-76.

(11) الشعراني عبد الوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، المصدر السابق، ص ص 46-47.

(12) الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، المصدر السابق، ص ص 76-77.

(13) الشعراني عبد الوهاب، الكوكب الشاهق في الفرق بين المريد الصادق وغير الصادق، المصدر السابق، ص 53.

(14) القشيري عبد الكريم، الرسالة القشيرية، المصدر السابق، ص ص 731-735.

(15) القشيري عبد الكريم، الرسالة القشيرية، المصدر السابق، ص ص 736-738.

(16) الجيلاني عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996، ص ص 439-440.

(17) الجيلاني عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، المصدر السابق، ص ص 440-441.

(18) الجيلاني عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، المصدر السابق، ص ص 445-447.

(¹⁹) الجيلاني عبد القادر، الغنية لطالبي طريق الحق، ص ص 449-451.